الشافعي واضع علم أصول الفقه

للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

— ٤ —

ا — الدراسات الفقهية الى عهد الشافعي . ب — أهل الرأي وأهل الحديث
ج — الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث وآثاره وكتبه
د — وضع الشافعي علم أصول الفقه

ا — الدراسات الفقهية الى عهد الشافعي

١ — كان التشريع فى عهد النبي عليه السلام يقوم على الوحى من الكتاب والسنة . وعلى الرأى من النبي ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه وبدون تنازع ولا شقاق بينهم

ومضى عهد النبي عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١ هـ ٦٣٢ الى سنة ٤٠ هـ ٦٦٠ وقد اتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس فى الوقائع التى لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم ؛ وفى هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الاجماع بما كان يركن اليه الائمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة ، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ وهم المعتبرون فى الاجماع قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم فى حكم من الاحكام

ولم يكن يفتى من الصحابة ألا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالته وناسخه ومنسوخه ، وكانوا يسمون «القراء» لذلك ، وتمييزا لهم . عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب فى أمة أمية — لا تقرأ ولا تكتب —

ثم كان عصر بنى أمية من سنة ٤٠ هـ — ٦٦٠ م إلى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩ م وتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب ، ودخلت فى دين الله أمم ليست أمية فلم يعد لفظ القراء نعتا غريبا يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين ، فمالك استعمل لفظ العلم للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمى أهل هذا الشأن « العلماء » واستعمل لفظ « الفقه » للدلالة على استنباط الاحكام الشرعية بالنظر العقلى فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة

وسمى أهل هذا الشأن « الفقهاء » فاذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يراد فهما

وفى طبقات ابن سعد : « كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه ، وكان زيد بن ثابت فقيها فى الدين عالما بالسنن

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده فى الصحف كابن عباس ، والشعبي ، والنخعى ، وقتادة ، ومن ذهب مذهبهم ، وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على الحفظ جبلة العرب

قال ابن عبد البر : من كره كتاب العلم انما كرهه لوجهين :

أحدهما — ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ . (مختصر جامع بيان العلم ص ٣٤)

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين ، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام الى الموالى إلا قليلا (عن عطاء قال : دخلت على هشام بن عبد الملك فقال : هل لك علم بعلماء الامصار ؟ قلت : بلى قال : فمن فقيه المدينة ؟ قلت : « نافع » مولى ابن عمر ، وفقيه مكة « عطاء بن رباح » المولى ، وفقيه اليمن « طاوس » بن كيسان المولى ، وفقيه الشام « مكحول » المولى ، وفقيه الجزيرة « ميمون » بن مهران المولى ، وفقيها البصرة « الحسن » وابن سيرين ، المولیان ، وفقيه الكوفة ابراهيم النخعى الغربى ، قال هشام : لولا قولك عربى لكادت نفسى تخرج) مناقب الامام الأعظم للبزاز حـ ١ — ص ٥٧

عندئذ تضاءلت النزعة العربية الى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمرا لازما (عن سعد بن ابراهيم قال : أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ — هـ ٧٢٠ م بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث الى كل بلد له عليها سلطان دفترا) مختصر جامع بيان العلم ص ٣٣

وقد بدت مخايل نهضته فى التشريع الاسلامى منذ ذلك العهد

شاهد (سان سلفادور) . . وقبل أن ينزل الى البر ، اقترب منى أحد أصدقائى الصغار ، وهمس فى اذنى قائلا : أتعلم لماذا نجونا من العاصفة ؟ ان القسيس كان يصلى من أجلنا طول الليل . فلما نقلت هذا الحديث الى والدى ابتسم وقال : بل هى دعوات جدتك (١) يابنى ! . . أما أنا فأرى ان العناية لم تشأ ان يموت هذا الشاعر قبل أن يتم رسالته ، ويغنى على قيثارته حضارة العرب الفخمة بالاندلس !

(١) أم والدي وكانت تقيم فى حلوان

كرمة بن هانى.

حسين شوقى

فحصل تدوين بعض السنن وبعض المسائل ولم يصل الينا من تلك المدونات إلا صدى (١).

ويقول «جولد زيهر» فى مقاله عن كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الاسلامية : (وينبغى ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه فى يوم الحرة حرقت لأبيه كتب فقه،ولا يمكن أن يتصور بحال أنه فى ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وانما هى صحائف متفرقة ،وتوفى عروة سنة ٩٤هـ — ٧١٢ م التى كانت تسمى (سنة الفقهاء) لكثرة من مات فيها من الفقهاء)

وبالجملة : فانه اذا كان دون شىء لضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما فى عهد بنى أمية ، فان التدوين فى الفقه بالمعنى المحدث لم يكن الا فى عهد العباسيين .

هذا هو الرأى الذى كان مقررا بين الباحثين لكن (جولد زيهر) يذكر فى المقال الذى أشرنا اليه آنفا مايأتى : (وقد اكتشف (جرفينى) بين المخطوطات القيمة فى المكتبة (الامبروزية) بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية مختصرا فى (الفقه) اسمه (بمجموعة زيد بن على) المتوفى سنة ١٢٢ هـ — ٧٤٠ م وهو منسوب الى مؤسس فرقة (الزيدية)من الشيعة ،وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم بمجموعة فى الفقه الاسلامى ، وعلى كل حال ينبغى أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف فى الفقه الاسلامى.واذا صح : أنه وصل الينا من بطانة(زيد بن على) وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل الينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية

على أن البحث الذى أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل

ومن أسف ان هذا البحث لم يثره مسلمون ولا أثير فى بلاد أسلامية

وقد ذكر صاحب « الفهرست » عند الكلام على « الزيدية » مانصه : الزيدية الذين قالوا بأمامة زيد بن على عليه السلام ،ثم قالوا بعده بالأمامة فى ولد (فاطمة)كائنا من كان بعد أن يكون عنده شروط الأمامة ،وأكثر المحدثين على هذا المذهب مثل : « سفيان ابن عيينة» و « وسفيان الثورى » ... ص ١٨٧

وعلاقة هذين الأمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذى يشير اليه « جولدزيهر» شأنا خطيرا

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢ هـ و ٧٤٩ — ٧٥٠ م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم،فكان طبيعيا ان تنتعش العلوم الدينية فى ظلهم،بل كانت حركة النهوض أسرع الى العلوم الشرعية لأنها كانت فى دور نمو طبيعى وتكامل

وهناك سبب آخر يذكره « جولدزيهر » فى كتابه « عقيدة الأسلام وشرعه » هو : « أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية

كان العباسيون يجعلون حقهم فى الأمامة قائما على : أنهم سلالة البيت النبوى ، وكانوا يقولون : لنهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاما منطبقا على سنة النبى وأحكام الدين الالهى

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية ، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة ،كان برنامج الحكم العباسى

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعى ، جمع الاحكام الشرعية ، وتدوينها ،

---

(١) على أن تلك المدونات لم تكن الا صحائف أو مذكرات أما اول تدوين للسنن بالمعنى الحقيقى فيقع نحو ما بين سنتى ١٢٠ و ١٥٠هـ
ويقول ابن قتيبة : أن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ هو أول من كتب الحديث
وفى كتاب « كشف الظنون » : (واعلم أنه اختلف فى اول من صنف فقيل : الامام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٠ هـ — ٧٧١ — ٧٧٢ م وقيل أبو النصر سعيد بن ابى عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ — ٧٧٢ — ٧٧٣ - ذكرهما الخطيب البغدادى وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٦ هـ — ٧٨٢ — ٧٨٣ م « قاله الرامهرمزى »
وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما)
ح ١ ص ٢٥ ، ٢٦